الباب الأول
جمع القرآن

الفصل الأول : جمع الله تبارك وتعالى للقرآن الكريم

الفصل الثاني : جمع المسلمين للمصحف الإمام

الفصل الثالث : التجديد في علوم القرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

جمع الله تبارك وتعالى للقرآن الكريم

إذا كان من الثابت أن القرآن الكريم كان ينزل مفرّقاً، وإذا كان من الثابت أيضاً أن الآيات التي كانت تنزل مفرقة لم تكن تبقى مفرقةً، بل كانت تُجعل في سور مستقلة عن بعضها، هذا إن لم يكن نزول السورة كاملةً، فإن ذلك يعني أن وحدة البناء الأساسية في القرآن الكريم هي السور، وليس الآية أو الآيات من غير سورةٍ، فالسورة أساس وحدة البناء في القرآن الكريم، وبذلك جعل المولى عز وجل عدد وحدات البناء في القرآن الكريم مائةً وأربع عشرة سورةً، ونص على ذلك في أكثر من موضع فقال تعالى في سورة هود المكية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقال في سورة محمد المدنية: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠﴾، وقال تعالى في سورة النور المدنية: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

وإذا كنا نعلم أن نزول الآيات وبناء السور تواصلَ في ثلاثةٍ وعشرين عاماً تقريباً، فإن ما لا نعلمه هو عدد المرات التي كان ينزل بها الوحي ليشكّل كل سورةٍ من هذه السور، ولا عدد المرات التي نزل بها جبريل عليه السلام على النبي عليه الصلاة والسلام، ولا عدد الآيات التي كان ينزل بها في كل مرةٍ، وهو ما سمي بنجوم القرآن، أي: عدد الآيات التي كانت تنزل في الدفعة الواحدة، وإذا كانت هذه الأسئلة

غير مهمةٍ في نظر بعضٍ أو مما لا يمكن التفكير فيه عند آخرين، فإن السؤال الأهم في كل ذلك وما يجب التفكير فيه هو: من الذي تولى جمع الآيات ونجومها ليجعل منها سورةً كاملةً؟ ومن الذي تولى جمع السور ليجعل منها قرآناً كاملاً؟

هل كان من مهمات النبي عليه الصلاة والسلام أن يجتهد في موضع الآياتِ النازلة في كلِّ مرةٍ؟ وهل كان يجتهد في تحديد وحدات بناء السورة، من حجم السور وقصرها وطولها وعدد آياتها؟ وهل كان يجتهد في تقدير الوحدة الموضوعية للسور؟ وهل كان يجتهد في تحديد الوحدة التاريخية للسور؟ أي في تحديد المدة التاريخية التي كانت تستغرق في بناء السورة الواحدة من أولها إلى آخرها، أم أن الله تبارك وتعالى قد جعل جمع القرآن من مهمات المسلمين والمؤمنين ومسؤولياتهم واجتهادهم؟ أم أنَّ الله سبحانه وتعالى هو من تولى ذلك بنفسه، ولم يجعل قرار جمع الآيات المفرقة نزولاً وبناء السور من وظائف النبي ولا من مهماته ولا من مسؤولياته؟ فضلاً عن أن يجعل ذلك من مهمات المسلمين والمؤمنين أو اجتهادهم.

الجمع الأول: الجمع الرباني

ونجيب على ذلك بقولنا: إن من الواجب أن تكون مسألة جمع القرآن الكريم من المسائل التي حسم الأمر فيها في السنوات الأولى من بدء نزول القرآن الكريم في مكة المكرمة، وتأكد ذلك يوم اكتمال نزول القرآن الكريم على النبيِّ عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة، أي أن الله تبارك وتعالى أجاب على هذه الأسئلة، وأخبر أنه هو من تكفّل بجمع القرآن قبل أن يتكفل بحفظه، وذلك بما أخبر الله تعالى نبيه في آيات القرآن الكريم بأنه تكفل بجمعه وقرآنه وبيانه في سورة القيامة المكية، وقد تكفل الله تعالى بجمعه قبل تكفُّله بحفظه على أساس أن سورة القيامة المكية التي نزل فيها تعهد الله بجمعه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾، نزلت قبل سورة الحجر المكية التي تكفل الله تبارك وتعالى فيها بحفظه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

وقد اشتَهرت آية الحفظ على الألسُن أكثر من اشتهار آية الجمع، بسبب اقتصار تفسير آية الجمع على معنى واحد، وهو جمعه في قلب النبي عليه الصلاة والسلام[1]، وهو تفسير صحيح رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولكنه تفسير غير قطعي الدلالة على أنه خاص بالنبي وحده، كما فُهم من الروايات وكتب التفسير، لأن جمع القرآن الكريم في قلب النبي وحده لا يكون جمعاً كاملاً ولا تاماً ولا وافياً، إلا إذا جُعل هذا الجمع عاماً وشاملاً لأتباعه عليه الصلاة والسلام في حياته، ولكافة المسلمين والمؤمنين وللناس كافة إلى يوم الدين، بل إن من لوازم حفظه أن يقوم حافظه بجمعه وقرآنه وبيانه، وتأمين كل الشروط اللازمة لذلك.

وأما تدوينه وكتابته على الصحف في الدنيا فهذه من الأمور الدنيوية، التي يتكفل بها العباد كتابَ ربهم، أي أن ما ترك للعباد هو وسيلة تدوينه وحفظه بحسب إمكانياتهم الزمانية وقدراتهم التقنية، وهو ما لا يدخل في عملية الجمع بالمعنى القرآني لهذه الكلمة، وإنما في عملية التدوين ونوعها؛ وقد أطلق بعض المسلمين على عمليات التدوين كلمة الجمع، كما في كتاب الجامع الصحيح للبخاري وغيره، وهو معنى عقلي مجازي للجمع لما بينهما من ترابط ومشاركة، لأنه يجمع سور القرآن الكريم في رقاع وصحف أو في مصحف إمام، أو على أشرطة مسموعة أو مرئية أو ممغنطة أو غيرها.

ونقول: إن استعمال كلمة الجمع على عملية تجميع المدونات هو معنى حقيقي أيضاً، ولكن لما كان الأصل في جمع القرآن هو جمع ما تفرق نزوله وتم ذلك من الله تعالى، فقد اعتبرنا كل جمع بعده وإن كان للمدوَّنات المفرقة في مصحف واحد هو جمع بالمعنى العقلي والمجازي حتى يتميز عن جمع الله تبارك وتعالى للقرآن، ولأن المعنى الحقيقي للجمع هو ما جاء به القرآن الكريم، فالمعنى الحقيقي لجمع القرآن

---

(1) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (تفسير الطبري)، ابن جرير الطبري (310هـ)، تقديم الشيخ خليل الميس، ضبط: صدقي جميل العطار، 1415هـ-1995م، دار الفكر، بيروت، ج 29/ ص 234، وغيره من كتب التفسير.

الكريم هو المعنى الذي يُستنبط من القرآن الكريم، وبالمعنى اللغوي لكلمة الجمع عربياً، والمعنى الحقيقي للجمع يعني قيام الله تبارك وتعالى بهذا العمل دون مشاركة أحد من خلقه، وحقيقة ذلك أن جمع القرآن الكريم وضم آياته إلى بعضها ونظمها في السورة الواحدة، وبناء السور ونظمها كلها في القرآن الكريم كله، كان بأمر وعلم من الله تبارك وتعالى، وليس أمر النبي عليه الصلاة والسلام لكتبة الوحي أن يكتبوه على هذا النحو - إذ قال لهم ضعوا هذه الآية في موضع كذا وكذا - إلا اتباعاً لأمر الله تعالى، والدليل القطعي الثبوت على ذلك هو قول الله تعالى في سورة القيامة المكية: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾.

وبيان الدلالة أن معنى كلمة الجمع لغة هو: تضام الشيء[1]، أي ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض[2]، ومعنى قرآنه: «من القراءة وهي: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل..»[3]، أي إذا ضممنا بعضه إلى بعض، فاتبَعْ ضمه كما ضممناه وكما جمعناه لك، وكما جعلناه قرآناً، ولذا لا يحصر تفسير كلمة الجمع في هذه الآيات على تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، لأن تحريك الرسول عليه الصلاة والسلام لسانه تعجلاً به، ليس خوفاً على نسيانه، وقد أخبره الله من قبل في سورة الأعلى المكية: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾، وإنما كانَ حرصاً منه عليه الصلاة والسلام على أن يحفظه على النحو الذي ينزل عليه، أي وفق سياقه ومناسبته التنزيلية، واجتهاداً منه عليه الصلاة والسلام أنَّ جَمْعَ القرآن هو من مسؤوليته النبوية، فجاء التطمين من الله تبارك وتعالى أن عملية جمع ما ينزل مفرقاً هو من مسؤولياته تبارك و تعالى، ويخبره بتعهُّد الله عملية الجمع وجعله قرآناً، أي

---

(1) معجم المقاييس في اللغة، أحمد ابن فارس (395هـ)، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو. دار الفكر. بيروت، الطبعة الثانية، 1418هـ - 1998م، ص 224.

(2) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم. دمشق، الطبعة الثالثة، 1423هـ - 2002م، ص 210.

(3) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني. ص 668.

جمع وضم آياته بعضها إلى بعض وبناء نظمها في السور كلها، وأن ذلك سيكون على النحو الذي يريده الله تبارك وتعالى، ولذلك تعهد الله بجمع الآيات والسور وجعلها قرآناً، وطلب من النبي عليه الصلاة والسلام اتباع هذا الجمع والضم كلما قرأ عليه وعلى نحو ما يبنى وينظم له، وجاء طلب الاتباع بصيغة الأمر ليؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يجتهد في طريقة جمع الآيات والسور لتصبح قرآناً، وإنما كان مأموراً باتباع الجمع الذي يأتي من الله، والمأمور باتباع الجمع الرباني لا يكون مكلَّفاً بجمعه ولا مجتهداً فيه.

فآيات سورة القيامة تطمئن النبي عليه الصلاة والسلام على جمع القرآن الكريم، وأن لا يحرك به لسانه ليعجل به، وتأمرُ النبي عليه الصلاة والسلام باتباع الضم الذي ينزل من الله تعالى، وتبين الآيات طريقة ذلك: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾، أي أن القراءة تكون أولاً من قِبَلَ الوحي، فإذا قرأ عليك القرآن فاتبع القراءة التي تقرأ عليه، فالآيات فيها تطمين وتعليم وأمر بالاتباع، والمأمور هو النبي عليه الصلاة والسلام، والخطوات هي:

أولاً: عدم التعجل في حفظه، مثل تحريك اللسان بسرعة.

ثانياً: جمع القرآن وضم بعضه إلى بعض أي قرآنه هو أمر إلهي (إن علينا)، وليس مما تُرك إلى اجتهاد النبي عليه الصلاة والسلام أو غيره.

ثالثاً: إن النبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يتبع كل جمع وضم لآيات القرآن الكريم وسوره، وذلك كلما قرأ عليه آيات قرآنية جديدة أن يتبع المكان الذي وضعت فيه هذه الآيات، وقراءتها على النحو الذي جعلت فيه، أي اتباع الترتيب الذي يتلى عليه به، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾.

رابعاً: أن الله تعالى ـ بعد جمعه وقرآنه للوحي ـ تعهّد ببيانه، أي أن البيان مرحلة لاحقة على الجمع والضم، والبيان المقصود هنا هو بيان النبي عليه الصلاة والسلام لأحكام القرآن الكريم بالطريقة التي يريدها الله تبارك وتعالى، مثل بيان كيفية الصلاة التي أمر القرآن الكريم بها دون بيانها بالنص القرآني نفسه،

فقام النبي عليه الصلاة والسلام ببيانها عملياً وكذلك الزكاة والصيام والحج وغيرها.

وبذلك تكون آيات سورة القيامة دليلاً قطعي الثبوت وقطعي الدلالة على أن جمع القرآن الكريم هو مما تكفّل الله به وقام به فعلاً، وهو ما ثبت فعلاً باتباع النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الجمع أولاً، وبعدم وقوع الاختلاف فيه في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ولا بعد وفاته، فلم يَجْمَعِ القرآنَ الكريمَ أحدٌ من المسلمين على خلاف الجمع الذي جمعه الله تعالى به، ولا خلاف الجمع الكتابي الذي جمعه النبي عليه الصلاة والسلام وأبلغه لأمته، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة طه المكية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[1].

وهذا الجمع للقرآن هو الجمع الحقيقي لأنه جمعٌ لِمَا نزل مفرقاً. وجامعه هو الذي أنزله مفرقاً وهو الله تبارك وتعالى، والله أعلم بما أنزل مفرقاً وأعلم بتاريخ نزوله ومكانه وموضع جمعه عند نزوله، ولما كان هذا الجمع من الله تعالى وهو أول جمع لآيات القرآن الكريم حقيقة، فقد أسميناه **الجمع الحقيقي**، وأطلقنا عليه الجمع الأول، وهو **الجمع الرباني**، أي جمع الله تبارك وتعالى، وهذا هو معنى كلمة الجمع كما وردت في القرآن الكريم، وكل جمع بعده تابع له، وفرع منه، سواء أكان من النبي عليه الصلاة والسلام أم من الصحابة رضوان الله عليهم أم ممن أتى بعدهم.

والدليل الآخر على أن جمع القرآن الكريم كان من الله تعالى قوله تعالى من سورة الفرقان: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾، ومعنى الترتيل: اتساق الشيء وانتظامه على استقامة[2]، والضمير عائد على الله تبارك وتعالى. أي أن اتساق القرآن وانتظامه

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، مراجعة: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1415هـ-1995م. ج19/ ص 96.

(2) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 341.

على استقامة في نزوله كان من الله تعالى، وبهذا المعنى يُستدل على أن نظم آيات السورة وترتيبها هو من الله تعالى، وأن اتّساق آيات السورة الواحدة كان من الله تعالى، ومرتّباً بحسب تاريخ نزولها، وإن نزلت مفرقة على تواريخ مرتّلة أي: منتظمة وعديدة.

ويُستنبط من مقدمة هذه الآية ونهايتها أن الأصل هو نزول الآيات في السورة الواحدة وإن نزلت مفرقة، ولكنها في ترتيلها وترتيبها من الله تعالى، وهذا ما اصطلحنا على تسميته بالمناسبة التنزيلية في كتاب علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره[1]، ومعناها أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة هو من الله تعالى بحسب نظمها وتاريخ نزولها أيضاً، فيكون تاريخ نزول الآيات هو تاريخ نزول سورتها، وإذا ثبت الاستثناء فيكون لضرورة وحكمة من الله تعالى، ولا يقال بالاستثناء إلا بدليل راجح وحجة مقنعة، وإلا فالأصل نزول آيات السورة الواحدة في ترتيل واحد، دون التداخل مع آيات سور أخرى، وقد يُعترض على هذا الاستدلال بأن معنى الترتيل هو: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة، وبهذا المعنى فسّرت الآيات ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ ﴾ من سورة المزمل، و﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝ ﴾ من سورة الفرقان[2]، ونحن نوافق على هذا المعنى ولكنا نقول إن هذا ما يكشف عن صعوبة التعامل مع التفسير التراثي فقط، لأن المفسِّر يعطي المعنى الأقرب للمعنى المتداول في مجاله، والترتيل أُخِذَ مصطلحاً في علم التجويد والقراءات، بمعنى قراءة القرآن مرتلاً، وهو معنى صحيح وهو بمعنى قراءة القرآن الكريم مجوداً ومنضبطاً، ولكن ما الذي يمنع أن يفهم الترتيل بهذا المعنى والمعنى الأول الخاص في مجال نزوله..؟ وبالأخص أن الآية المقصودة جاءت في معرض الحديث عن حِكمة عدم نزوله جملة واحدة، فكان الجواب أنه نزل مفرقاً ولكنه مرتل من الله تعالى، أي متتابع

---

(1) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره. ص 135.

(2) انظر: مجمل اللغة، أحمد بن فارس (395)، دار الفكر، بيروت، 1414هـ- 1994، ص 315. ومفردات ألفظ القرآن، الأصفهاني، ص 341.

النزول، فالأولى تقديم معنى ترتيل النزول على معنى ترتيل القراءة، وبالأخص عندما يكون الحديث عن عملية جمع القرآن الكريم.

لقد منع حصر معنى كلمة الترتيل على المعنى الاصطلاحي في القراءة، منع علماء المسلمين من قَبْلُ من الاستدلال بهذه الآية على أن جمع القرآن الكريم كان من الله تعالى، وذلك بسبب الاعتماد على التفسير التراثي والمذهبي، بل وبسبب الاعتماد على معاجم اللغة التي تستدل بالكلمة القرآنية على ما قاله المفسرون من قبل، وكتب المعاجم اللغوية كُتبت بعد كتب التفسير وأصحابُها من أهل المدارس التراثية، بل أغلبهم من مدرسة المعتزلة، كما يُلاحظ عند الراغب الأصفهاني وغيره، وهذه الإشكالية واجهتنا في تفسير آيات سورة القيامة أيضاً، إذ لم يُستدل بها على أن جمع القرآن الكريم كان مما تكفّل المولى عز وجل به، مما يتطلب من العلماء المجددين التنبه عند دخول دائرة الاستدلال باللغة المدونة بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة، والمشكلة هي أن وضع المعاجم اللغوية استدل على معاني الكلمات من القرآن الكريم، وعند الحاجة إلى تفسير معنى كلمة أو آية قرآنية تعود الدائرة على معاجم اللغة، مما ساعد على ترسيخ التفاسير التراثية، وثبات منهج التفسير الجزئي إما للفظ أو للآية، وحال دون التجديد في التفسير لقرون طويلة.

فإذا قيل: إن الاستثناء ثابت بأن بعض الآيات نزلت في غير تاريخ نزول سورتها، مثل تاريخ نزول سورة العلق، فقد نزلت الآيات الأُولى في اليوم الأول من البعثة النبوية الشريفة، وتأخّر نزول باقي السورة إلى سنوات عدة، وكذلك الآية الأخيرة من سورة المزمل وغيرها، وكذلك جاء في كتب السنن وروايات أسباب النزول وآثار الأولين بأن بعض الآيات المكية نزلت في سور مدنية أو العكس. فكيف نفسر ذلك، فالجواب هو القول بالأصل وقبول الاستثناء الصحيح الثابت، أي أن وجود الاستثناء لا يلغي القول بالأصل، وهو أن آيات القرآن الكريم نزلت مرتلة في سور قرآنية ومتتابعة في تاريخ نزولها من الله تعالى، علماً بأن الاستثناءات قليلة جداً بالنسبة لعدد آيات القرآن الكريم، وهذا القليل من هذه الاستثناءات التي تصح

روايةً ودرايةً بمنهج المحدثين، أغلبها إن لم يكن جميعها هي آثار تفسيرية تأخذ حُكْم الاجتهاد التراثي، والأصل أن تُعامَل مثله.

ومن الممكن أن يكون دليل وجود أو وقوع مثل هذه الاستثناءات ما نزل في سورة النحل المكية بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، فهذه الآيات الكريمة تكشف عن اعتراض آخر للذين كفروا، وهو وقوع تبديل في أماكن بعض الآيات في السورة الواحدة، فَوُصِفَ التبديل من الكفار بالافتراء في حق النبي، فأجاب القرآن عليهم بأن هذا ليس افتراء لو كانوا يعلمون، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يأت بهذا التبديل من عنده، وإنما هو متبع لما نزل عليه من روح القدس جبريل عليه السلام.

ومن الممكن أن يستدل بهذه الآيات الكريمة من سورة النحل المكية على أن جمع القرآن كان من الله تعالى، أي أن مكان الآيات في السورة الواحدة كان بأمر من الله تعالى، وإذا وقع إبدال آية قرآنية مكان آية قرآنية أخرى فقد كان كذلك بأمر من الله تعالى، مثل أن تنزل آية جديدة فتوضع في موضعها الذي هي عليه في سورتها وفي المصحف الإمام، أي أن القرآن الكريم جمع ورتب في المواضع والأماكن التي نزل بها جبريل عليه السلام بأمر من الله تبارك وتعالى، كما تخبرنا آيات سورة القيامة.

والنصّ على ذكر روح القدس جبريل عليه السلام، إنما هو لتأكيد النفي أن يكون هذا الأمر من النبي نفسه، وإنما هو من الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، والعلة في ذلك أيضاً هو التثبيت، وهذه المرة للذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين، فترتيب الآيات في القرآن كله من الله تعالى، لأنه هو الآمر لروح القدس جبريل عليه السلام. فإخبار المولى عز وجل أن تبديل موضع الآيات لا يكون إلا بأمر من الله تعالى وليس

من فعل الرسول نفسه فقط، قاطعٌ لكل قول في مسألة جمع القرآن الكريم؛ ومنه جمع الآيات في السورة الواحدة.

فإذا قيل إن المقصود من تبديل الآيات في سورة النحل هو النسخ، فهذا القول مرجوح بأن سورة النحل مكية وليس في مكة ناسخ ومنسوخ، وإذا قيل إن تبديل الآيات هنا للمعجزات التي أتى بها الأنبياء، أو تبديل الكتب المنزلة على رسل الله تعالى، فهذا الرأي مرجوح أيضاً بأن علة تبديل الآيات في سورة النحل هو من أجل تثبيت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين، أي أنها في معرض الحديث عن التنزيل الذي يخص الذين أمنوا، فهي تبين توسع القضايا الفكرية التي عالجتها السور المكية في أوائل التنزيل المكي وأواخره، فسورة النحل مما نزل في أواخر العهد المكي، ونزول آيات قرآنية أكثر مواجهة لمشركي مكة من الآيات التي سبقتها. أو نزول أحكام جديدة لم تكن قد نزلت في تشريع سابق، وهذا كله مستفاد من حكمة نزول القرآن مفرقاً كما جاء في سورة الفرقان وسورة الإسراء، فكان التنزيل يترتل ترتيلاً مع التواريخ والأيام التالية والوقائع والأحداث المتجددة.

ومعنى كلمة الآية في القرآن الكريم جاء لأكثر من معنى، **أولها: للمعنى الحسي والعقلي**، مثل معجزات الأنبياء كما في قوله تعالى من سورة طه في الحديث عن فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾، فالآيات التي كانت تظهر على يدي موسى عليه السلام كانت آيات مادية، حسية وعقلية، مثل العصا والحية وغيرها، ومن المعاني الحسية والعقلية الآيات الكونية مثل قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾، وقوله تعالى في سورة الأنبياء المكية: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

والمعنى **الثاني** لكلمة الآية في القرآن الكريم جاء **للنص الكلامي اللغوي**، أي العبارة القرآنية المكونة من كلمات وحروف منتظمة، مثل قوله تعالى من سورة مريم:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾، وقوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ . . ﴿٧﴾ ﴾، فلا يحصر معنى كلمة الآية في القرآن على المعنى الحسي والعقلي ولا على المعنى الكلامي اللغوي، وإنما سياق النص القرآني هو الذي يدل على المعنى المراد منها، والمعنى الحسي والعقلي يُصاغُ في عبارة كلامية، والعبارة الكلامية تتضمن المعنى العقلي والحسي.

والسياق في سورة النحل يدل على أن المعنى المراد من كلمة الآية هو العبارة القرآنية التي كانت تنزل مفرقةً وكانت تُوضع حيث يأمر الله تبارك وتعالى الروحَ القدس جبريل بوضعها، ثم يأمر جبريلُ عليه السلام النبيَّ عليه الصلاة والسلام بوضعها في مكانها المطلوب، ويأمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام كتبة الوحي أن يضعوها حيث أمر، أي أن نزول القرآن مفرقاً وبناء وحدات السور، أو تبديل مكان الآيات بسبب نزول القرآن مفرقاً وعلى مُكْث هو بقصد تثبيت فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام كما في سورة الفرقان وسورة الإسراء، وبقصد تثبيت الذين آمنوا كما في سورة النحل، ولا محل للاعتراض على مكان الآيات أو تبديل مكانها لأنه من الله تعالى والله أعلم بما ينزل، لما تقتضيه حكمة التنزيل بما نصت عليه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾، فليس أمر هذا التبديل في مكان الآية من اجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما بما ينزل به روح القدس جبريل عليه السلام من الله تعالى بالحق، فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر بوضع الآيات حيث يأمر الله تبارك وتعالى، فيقول ضعوا هذه الآيات في مكان كذا وكذا أو في الموضع الذي يذكر فيه كذا أو كذا، وهو ما سنبحثه في الفصل التالي، وهو عمليةُ تدوين القرآن الكريم المجموع على الأحجار والعسب والنخيل وغيرها.